

كما عرفوا ماضى أسلافهم السياسى والفكرى والاجتماعى ، أو الحضارى بصفة عامة ، ووقفوا على أجدادهم التى رفعت منارهم ، وجعلت لهم شخصية مستقلة متميزة عن سائر الأمم التى عاصرتهم فى فترة من فترات التاريخ ، كان الظلام يلف فيها أكثر بقاع الدنيا ، وكان الاستبداد والهمجية والوحشية والجهالة تغشى حياة أكثر الأمم التى أصبحت توصف فى زماننا بالتقدم والمعرفة والحضارة .

فكان الحنين الدائم إلى استعادة تلك الأجداد الأصيلة ؛ ووصل الحاضر المظلم للحياة العربية بماضىها المشرق . ولعل أولئك رأوا أن لا سبيل إلى النهوض إلا باقتفاء آثار الأسلاف فى كل منحى من المناحى التى يراد لإنهاضها ، ومحاولة وصل الحياة الحاضرة أو بنائها على الأساس القوى القديم . وقد تتجدد الحياة فى ظاهرها ، وقد يتجدد الإنسان فى حياته ، ولكن الروابط الفكرية بين الإنسان المعاصر وأسلافه القدماء تظل دائمة الاتصال وإن أصابها الضعف فى فترات من التاريخ .

ولعل ذلك كان هو السر فى الخلاف بين أنصار القديم ودعاة التجديد ، فالأولون يتشبثون بالماضى ، لأنهم يرونه المورد الطبيعى وأساس البناء ، والآخرون يرون ضرورة التجديد الذى لا يكون إلا بتطويع اللغة لمجاراة الحياة ومقتضيات العصر . فلم يكن الناقد هو الدكتور طه حسين وحده ، بل شاركه فى الحملة على أنصار القديم عدد من كبار الكتاب والنقاد من أمثال العقاد والدكتور زكى مبارك والدكتور محمد حسين هيكل ، ولم يكن المنقودون من أصحاب الأقلام ورجال الأساليب الرافعى وحده ، بل شمل كثيراً منهم من أمثال السيد مصطفى لطفى المنفلوطى والشيخ عبدالعزيز البشرى الذى عرف بأنه من الكتاب الذين يحفلون بالأسلوب ، ويعنون بالصياغة ، وإن كان فى هذا الاتجاه يختلف اختلافاً كثيراً عن الرافعى الذى كان يحفل بالإغراب الذى يؤدى إلى التواء الفكرة وتعقيدها فى بعض الأحيان . ولكن أسلوب البشرى من غير شك يبدو فيه أثر الطبع وأثر الثقافة ، وطول القراءة والاطلاع ، ومع ذلك لم ينبج البشرى من هجمات النقاد ، وفى طليعتهم الدكتور زكى مبارك الذى وصف أسلوبه بالتكلف والتصنع والقعقة والعجيج ؟ وقال إنه كاتب على الطريقة « البشرية » .. كاتب يذكر فى كل سطر بأنه أديب يتصيد الأوبد من مجاهل القاموس واللسان والأساس . وتلك حال المنشئين المبتدئين ، وهى حالة ينكرها أعلام البيان .. ويتابع الدكتور زكى مبارك نقده للبشرى بأسلوبه التهكمى اللاذع الذى عرف به ، ونال به من كثير من أدباء العصر وعلمائه ، فيقول عن البشرى :